

بسم الله الرحمن الرحيم

منتدى كوالا لمبور
الخرطوم 17-18/11/2016م

(مفاهيم الحكم الراشد ومعاييرها في التراث
الإسلامي)

عصام أحمد البشير

مفاهيم الحكم الراشد ومعاييرها في التراث الإسلامي

مقدمة: ❖

الإنسان مدني بطبعه¹ لا يقوى على لأواء الدنيا وبلائها بمفرده ، ولا صلاح لشأنه إلا بالاجتماع والالتقاء ، ومن لوازم هذا التلاقي البشري الحاجة الماسة للقائد المرشد والإمام الهادي والدليل المعين ، فما من اجتماع بشري إلا وتشوف الناس فيه لمن يؤمهم نحو الخير وصلاح الحال، وهذه قضية كلية يشترك فيها بنو آدم على اختلاف الاجيال ، ليست خاصة بجنس دون جنس آخر ولا بأهل دين دون دين آخر، ولا تكاد تعرف جماعة إنسانية على مدى التاريخ الإنساني عاشت حياة راقية حققت فيها ما تصبو إليه دون وجود هذه القيادة التي يرجع الناس إليها.

وقد أخذت هذه القيادة مسميات عدة على مدار التاريخ الإنساني باختلاف البيئات والثقافات فمن ذلك : الملك والإمام والسلطان والأمير والرئيس، وأما في الصدر الأول فقد تراوحت بين الخليفة وإمرة المؤمنين ، ومن هؤلاء الخلفاء من سما بقدره وارتقى بمكانته فصار أهلاً للاتباع ومثالاً للرشد ، وقد حثنا نبينا صلى الله عليه وسلم على اتباع خطاهم والسير على منوالهم فقال: (عليكم بسنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ)² ، وقد بقي النموذج الراشدي محط اهتمام عامة المسلمين وعلمائهم ومؤرخيهم طوال التاريخ الإسلامي، بما حمله من قيم، وما مثله من ممارسات ربطت السلطة السياسية والسياسات العامة بحقوق الناس وإقامة العدل واختيار الأئمة لتولي شؤون المسلمين.

وقد تباينت آراء العلماء بين من يجيز قول القائل (خليفة الله) وبين من يمنع ذلك فاحتج القائلون بالجواز بقوله تعالى للملائكة : (إني جاعل في الارض خليفة) [البقرة:30]³ واحتجوا بقوله تعالى: (وهو الذي جعلكم خلائف في الارض) [الأنعام:165]⁴ وبقوله تعالى (امن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض) [النمل:62]⁵ . ومنعت طائفة هذا الاطلاق وقالت لا يقال لأحد إنه خليفة الله فإن الخليفة إنما يكون ممن يغيب ويخلفه غيره ، والله تعالى شاهد غير غائب ، قريب غير بعيد راء وسماع، فمحال أن يخلفه غيره بل هو سبحانه الذي يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته كما قال النبي صلى الله عليه و سلم في حديث شريف (والله

1 مقدمة ابن خلدون ج 1 ص 63

2 أخرجه أبو داود [2/ 611]، كتاب السنة: باب في لزوم السنة، حديث [4607]، والترمذي [5/ 44]، كتاب العلم: باب ماجاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، حديث [2676]، وابن ماجه [1/ 15 - 16]، المقدمة: باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، حديث [4/ 126 - 127]،، والحاكم [1/ 95]، والبيهقي [6/ 541] .

3 سورة البقرة

4 سورة الأنعام

5 سورة النمل

خليفتي على كل مؤمن (6)، ولهذا أنكر الصديق رضى الله عنه على من قال له يا خليفة الله قال لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله وحسبي ذلك قالوا وأما قوله تعالى إني جاعل في الأرض خليفة فلا خلاف أن المراد به آدم وذريته وأما قوله تعالى وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض فليس المراد به خلائف عن الله وإنما المراد به انه جعلكم يخلف بعضكم بعضاً، و قول موسى لقومه ويستخلفكم في الارض فليس ذلك استخلاقاً عنه وإنما هو استخلاف عن فرعون وقومه ، وكذا قول النبي صلى الله عليه و سلم ان الله مستخلفكم في الأرض أي من الأمم التي تهلك وتكونون انتم خلفاء من بعدهم⁷ ولابن القيم تعقيب على الرايين السابقين يقول فيه إن أريد بالإضافة إلى الله : أنه خليفة عنه ، فالصواب قول الطائفة المانعة فيها .

وإن أريد بالإضافة : إن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله ، فهذا لا يمتنع فيه الإضافة ، وحقيقتها : خليفة الله الذي جعله الله خلفاً عن غيره ، وبهذا يخرج الجواب عن قول أمير المؤمنين : أولئك خلفاء الله في أرضه (8) ، والصحيح عندي جواز إطلاق الوصف بمعنى الاستخلاف لعمارة الكون وعبادة الخالق سعياً بمنهجه بين الناس وكذلك هو وصف في مقام التشريف للمُستخلف .

المحور الأول تعريفات ومفاهيم

❖ أولاً : معنى الحكم لغة وشرعاً .
1. الحكم لغة:

" مادة (ح ك م) أصل واحد هو المنع (9) ، قال الراغب الأصفهاني (حَكَمَ : أصله منع منعاً ، ومنه سميت اللجام : حكمة الدابة ، فقيل حَكَمْتُ الدابة : منعتها بالحكمة ، وأحكمتها جعلتُ لها حكمة ، وكذلك حكمت السفينة وأحكمتها قال الشاعر :

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم
إني أخافُ عليكم أنْ أغضبا

6 أخرجه الحاكم (575/4 ، رقم 8614) . والطبراني كما في مجمع الزوائد (353/7) ، قال الهيثمي (351/7) : فيه عبدالله بن صالح وقد وثق وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات . وابن عساكر (196/62) .

7 مفتاح دار السعادة ص 165

8 مفتاح دار السعادة ص 162

9 معجم مقاييس اللغة - 91/2 - مطبعة الحلبي .

والحكم بالشيء أن تقضي بأنه كذا ، أو ليس بكذا ، سواء أُلزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه ، ويقال حاكم لمن يحكم بين الناس، ويقال الحَكْمُ للواحد والجمع وتحاكنا إلى الحاكم) (10).

ونجد أن مادة الحكم تأتي في القرآن على عدة معان منها : الفقه والحكمة والفصل والقضاء والموعظة والفهم والعلم والنبوة وحسن التأويل .(11)
2. تعريف الحُكم اصطلاحاً :

تدبير الشؤون العامّة للدولة بما يكفل تحقيق المصالح ودفع المضار ، تحقيقاً لمقاصد الشرع ورعاية لمصالح الخلق .

❖ **ثانياً : معنى الرشد لغة واصطلاحاً :**

1. **الرشد لغة :** يطلق الرشد في اللغة على معاني: الاستقامة، والهداية، وإصابة الحق والصواب، وكل ذلك نقيضُ الغيِّ والضلال . قال ابن فارس: المرشد: مقاصد الطريق، والرشد: خلاف الغي (12) "ومنه" :الرشد"، وهو: من أسماء الله، ومعناه: الذي أرشد الخلق إلى مصالحهم؛ أي: هداهم ودلّهم عليها، وقيل: هو الذي تنساق تدابيره إلى غاياتها على سنن السداد من غير إشارة مشير، ولا تسديد مسدد ، ومنه في الحديث: " وإرشاد الضالِّ "؛ أي: هدايته الطريق وتعريفه
13

وجاء في لسان العرب: استرشدته: طلب منه الرشد¹⁴. "و"الرشد : "الصّلاح، وهو خلاف الغي والضلال، وهو: إصابة الصواب¹⁵ ."

وقيل: "الرُّشد : "الاستقامة على طريق الحقّ مع تصلُّبٍ فيه، والرشد في صفات الله تعالى: الهادي إلى سواء الصراط، والذي حَسُنَ تقديرُه فيما قدَّر¹⁶ ."

وبناء على ما سبق، فالرُّشد عند أهل اللغة لا يخرج عن معاني: الاستقامة، والهداية، وإصابة الحق والصواب، وهو: نقيض الغي والضلال.

¹⁰ مفردات ألفاظ القرآن - مادة حكم 248 - دار القلم .

¹¹ (انظر الحكم والتحاكم في خطاب الوحي - عبدالعزيز مصطفى كامل - دار طيبة - ط: الأولى)

¹² " مقاييس اللغة "؛ لابن فارس: 318/2.

¹³ " النهاية في غريب الحديث والأثر "؛ لابن الأثير: ص: 359.

¹⁴ " لسان العرب "؛ لابن منظور: 1649/3 و1650.

¹⁵ " المصباح المنير "؛ للفيومي: ص: 87.

¹⁶ " القاموس المحيط "؛ للفيروزآبادي: 600/2.

مفهوم الرشد اصطلاحًا:

أ.الرشد في القرآن الكريم:

إن مفهوم الرُّشد في القرآن الكريم لا يكاد يخرج عن معانيه اللغوية السالفة الذكر، وقد تتبع العلماء كلمة الرشد في آيات القرآن الكريم، وقد ورد لفظ الرشد في القرآن الكريم تسع عشرة مرة بصيغ متعددة، لكننا إذا تتبعنا موارده في كتاب الله عز وجل نجده لا يخرج عن المعاني الستة الآتية¹⁷:

- 1- الرشد: بمعنى الهداية؛ كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: 7]؛ أي: "المهتدون"¹⁸، ونحو ذلك في القرآن كثير.
- 2- الرشد: بمعنى التوفيق؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرَشِدًا﴾ [الكهف: 17]؛ أي: موفقًا، وهو: "الذي أصاب الفلاح، واهتدى إلى السعادة"¹⁹.
- 3- الرشد: بمعنى الصواب؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 24]؛ أي: "صوابًا وخيرًا ومنفعة"²⁰.
- 4- الرشد: بمعنى إصلاح المال؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَنْسَلْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: 6]؛ أي: "إصلاحًا في دينهم، وحفظًا لأموالهم."²¹
- 5- الرشد: بمعنى العقل في الدين؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: 78]؛ يعني: "عاقلاً، فيه خير"، يقبل ما يأمر به لو طُ عليه السلام، ويترك ما ينهاه عنه²².
- 6- الرشد: بمعنى المخرج والعاقبة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]؛ أي: "مخرجًا، واجعل عاقبتنا رشداً"²³.

¹⁷ " قاموس القرآن"؛ للدامغاني (ت 478هـ): ص: 205 و 206، دار العلم للملايين بيروت، دون تاريخ.

¹⁸ " الكشاف"؛ للزمخشري، ص: 1301، سورة الحجرات.

¹⁹ المرجع السابق ؛ ص 743، سورة الكهف

²⁰ المرجع السابق ؛ ص 747، سورة الكهف.

²¹ " تفسير القرآن العظيم"؛ لابن كثير 400/1.

²² المرجع : 415/2.

²³ المرجع السابق.

ب. الرشد في اصطلاح العلماء :

الرشد يقصد به الصلاح والإصلاح وحسن التصرف والتدبير في شؤون الدين و في شؤون الدنيا ، والرشد: أن يبلغ الصبي حد التكليف صالحا في دينه مصلحا لماله. والمراد بالصلاح في الدين: أن لا يرتكب محرما يسقط العدالة، وفي المال: أن لا يبذر . والسفيه ضعيف العقل وسيئ التصرف، وسمى سفيها لخفة عقله، قال الله تعالى تعالى : {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ} [سورة النساء: الآية 5] 24

2. الرشد في الاستعمال المعاصر :

وقد ظهر مصطلح الحكم الراشد في اللغة الفرنسية في القرن الثالث عشر كمرادف لمصطلح "الحوكمة" ثم كمصطلح قانوني (1978) ليستعمل في نطاق واسع معبرا عن "تكاليف التسيير" (1679).

وكلمة رشد في الاستعمال المعاصر إضافة لصواب الرأي فإنها تشير إلى من بلغ النضج النفسي إضافة للنضج العقلي ، فهي تدل على قدرة الإنسان على ضبط عواطفه ومنعها من الجنوح ، وهي بالتالي تشير إلى بعد قيمي وجداني يجعل المرء ينضبط بضوابط أخلاقية إضافة إلى قدرته على النظر العقلي .

❖ ثالثا : من التعريفات المعاصرة للحكم الرشيد :

إننا يمكن أن نعرف الرشد السياسي بأنه يتمثل في جملة من المبادئ الكلية والمعايير القيمية التي تجعل الحياة في المجتمع منتجة ومثمرة ، وتسمح للأفراد بتطوير حياتهم وتحقيق الامكانيات النفسية والفكرية والابداعية والتعاونية الكامنة فيهم في أجواء من الحرية الضرورية لتطوير هذه القدرات الكامنة . 25

الحكم الرشيد موضوع إنساني وقيمي، ومن التعريفات السياسية ما يشير إلى "ممارسة السلطة الاقتصادية والسياسية والإدارية لإدارة شؤون الدولة على كافة المستويات ، ويشمل الآليات والعمليات والمؤسسات التي من خلالها يعبر المواطنون والمجموعات عن مصالحهم ويمارسون حقوقهم القانونية ويوفون بالتزاماتهم ويقبلون الوساطة لحل خلافاتهم" . 26

24 معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية ص 200

25 الرشد السياسي وأسسها المعيارية د. لوي صافي ص 16 .

26 برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP)

ويمكن القول بأن الحكم الرشيد هو الحكم الذي يتسم من بين جملة أمور أخرى بالمشاركة والشفافية والمساءلة ، ويكون فعالاً ومنصفاً ويعزز سيادة القانون . ويكفل وضع الأسبقيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية على أساس توافق آراء واسعة النطاق في المجتمع ، تسمع فيه أصوات أكثر الفئات ضعفاً وفقراً في صنع القرارات المرتبطة بتوزيع موارد التنمية .²⁷

ومما لا شك فيه أن تباين تعاريف الحكم الرشيد يؤدي إلى إشكالية قياسه . فمن جهة ، تتضمن هذه التعاريف مفاهيم صعبة القياس ، مثل رفاه الإنسان وقدرات البشر والخيارات والفرص والحريات (كما في تعريف تقرير التنمية الإنسانية العربية) وآليات وعمليات التعبير عن مصالح الناس الوفاء بالالتزامات (كما في تعريف برنامج الأمم المتحدة الإنمائي) والتقاليد واختيار القائمين على السلطة (كما في تعريف البنك الدولي) واستخدام السلطة والرقابة (كما في تعريف منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية) . ومن جهة أخرى ، تتكون هذه التعاريف من مصطلحات تمثل نتائج وليس مدخلات مثل رفاه الإنسان (تقرير التنمية الإنسانية العربية) الوفاء بالالتزامات (كما في تعريف برنامج الأمم المتحدة الإنمائي) وقدرة الحكومات على إدارة الموارد (كما في تعريف البنك الدولي) تحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية (كما في تعريف منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية)²⁸ وعلى أية حال ، فما يعنينا هنا هو المقاربة بين النظرة التراثية للحكم الراشد والتعريفات المعاصرة على تباينها .

❖ رابعاً : مفهوم التراث : التراث في اللغة :

كلمة التراث مشتقة من الفعل ورث، ومرتبطة دلالياً بالإرث والميراث والتركة ، يقول ابن منظور في كتابه "لسان العرب" : " الوارث: صفة من صفات الله عز وجل، وهو الباقي الدائم الذي يرث الخلائق، ويبقى بعد فنائهم، والله عز وجل يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، أي: يبقى بعد فناء الكل، ويفنى من سواه، فيرجع ما كان ملك العباد إليه وحده لا شريك له.

وأورث الرجل ولده مالا إيراثاً، ويقال: ورثت فلاناً مالا إذا مات مورثك، فصار ميراثه لك. وقال الله تعالى إخباراً عن زكريا ودعائه إياه: " هب لي من لدنك وليا يرثني

²⁷ http://onlypoliticalscience.blogspot.com/2010/12/blog-post_19.html

²⁸ أثر الحكم الرشيد على التنمية الاقتصادية المُستدامة في الدول العربية د. محمد محمود العجلوني

ويرث من آل يعقوب". أي: يبقى بعدي فيصير له ميراثي ؛ وقيل: الورث والميراث في المال؛ والإرث في الحسب (29) .

نستنتج مما سبق أن كلمة التراث من مشتقات ورث، وأنها لم ترد بالمفهوم الثقافي والحضاري الذي التصقت به دلاليا كلمة التراث كما في عصرنا الحديث والمعاصر، بل وردت الكلمة بمفهومين: أحدهما مادي يتعلق بالتركة المالية، وماله علاقة بالأصول والمنقولات، والثاني معنوي يرتبط بالحسب والنسب.

1. المعنى الاصطلاحي للتراث :

بيد أننا نفهم أن علماءنا المحدثين وظفوا التراث بمفهوم آخر، وهو: أن التراث كل ما خلفه الأجداد للأحفاد على صعيد الآداب والمعارف والفنون والعلوم، أو هو بمثابة الذاكرة الثقافية والحضارية والروحية والدينية التي تبقى للأبناء والأحفاد من أجدادهم وآبائهم. ويعني هذا أن الدلالة الحديثة للتراث بمثابة توظيف مجازي للدلالة المعجمية القديمة (30).

2. تباين المعاصرين في تعريفهم للتراث :

تباينت آراء المعاصرين بشأن مفهوم التراث وكيفية التعاطي معه وفقا لهذه المفاهيم ، فإذا كان نفر من أهل العلم يعرف التراث بأنه هو " :الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي والفني " ، ويجعل ذلك منطلقاً لكثير من آرائه وتقريراته ، فإن آخرين يعرفون التراث على أنه : "هو القرآن وكلام النبي صلى الله عليه وسلم لا غير(31) ". وهذا الاختلاف في التعريف يحدث خلا منهجيا وتباينا فكريا ، ويلبس على كثير من المطلعين على الفكر الاسلامي ، وخالصة القول في ذلك أن كلمة التراث باستعمالاتها المعاصرة تشمل النص المقدس المحفوظ وكذلك تشمل الاجتهاد البشري المتجدد ، وههنا بالضرورة ستختلف النظرة للتراث ، فليس كله على مستوى واحد من المعيارية ، فبعضه ثوابت لاتنكف عن أصل الشرع وقواعد الدين فالنص المقدس معصوم، وبعضه اجتهادات وآراء لها أكثر من وجه واحتمال وتطراً عليه عوارض

29 ابن منظور: لسان اللسان ، تهذيب لسان العرب، هذبه بعناية: المكتب الثقافي لتحقيق الكتب، تحت إشراف الأستاذ عبد أحمد علي مهنا، الجزء الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1993م، ص:728-729.

30 http://www.alukah.net/literature_language/0/41145/#ixzz4ORII4ynN
31 أحمد العلوي: (مناقشة مقال عابد الجابري حول التراث ومشكل المنهج)، المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1986، ص:97.

النقص البشري ، ونعتقد أن هذه النظرة المعتدلة هي التي يمكن أن تحفظ للشرع خلوه وللدين تجددده وللعقل دوره .

تعريف الحكم الراشد :

هو الحكم القائم على الاختيار الحر الرضائي المنضبط بالقيم ، الخاضع للمساءلة و القائم على رعاية وإصلاح شؤون الناس وتحقيق مصالحهم ودفع المضار عنهم بمشاركةهم و رضاهم ودون تسلط عليهم أو حملهم على ما لا يحبون ماداموا ملتزمين بقواعد الآداب وضوابط السلوك .

المحور الثاني : الحكم الراشد بين البنيوية والمعيارية

كثير من القراءات الفكرية للممارسة السياسية في التراث الإسلامي تقوم على اعتماد النموذج البنيوي الاجرائي الذي يسعى لتحديد معالم الرشد على أنها إجراء إداري وإطار حسي وبُنَى هيكلية، وذلك بالضرورة بيتسر معالم الشرع ومعاني الدين ، فإن ما يكون ملائماً من الاجتهادات لزمان بعينه لن يكون كذلك في زمان مغاير وسياق مختلف .

إن الرشد السياسي ينبغي أن يبني على أسس معيارية تعتمد المقاصد إطاراً والقيم مرجعاً و ضابطاً للشأن السياسي فكراً وسلوكاً ، وخير من الانشغال بالبنى الهيكلية التي اعتمدت في الحراك السياسي فإن من الأفضل لنا اعتماد قراءة مغايرة تسعى لتحديد القيم والمبادئ العامة التي تميز السياسة الراشدة بوصفها مطلباً أخلاقياً عملت الرسائل الاسلامية على ترسيخه بتأكيد القيم التي تتناسب مع الحياة السياسية ومع رسالة الانسان الخاصة وغاية وجوده .

(إن الحكم الراشد يتمثل في مجموعة من الأحكام المنبثقة عن منظومة معيارية تعطي للرشد معناه وحقيقته، سواء على مستوى الحكم والحكومة، أو على مستوى المجتمع المدني والحوكمة. هذه المقاربة المعيارية تمكننا ، من التحرر من قيود البنية وخصوصياتها الزمانية والمكانية، وتسمح لنا بتسليط الأضواء على السياسات العامة بدلاً من الانكفاء داخل دوائر الصراع السياسي والبنى السياسية المتبدلة وفق متغيرات الزمان السياسي والجغرافية السياسية. إن الاهتمام بالبنية السياسية على حساب القيم الحاكمة والبنى الاجتماعية الفاعلة و لَد نظاماً سياسية تدعي اعتماد مبدأ الشورى في شكلها الديمقراطي الحدائي، ولكنها في حقيقة الأمر قلصت الديمقراطية إلى طقوس إجرائية خاوية من روح الشورى الحقيقية)³².

32 الرشد السياسي واسسه المعيارية . د. لؤي صافي

إن الوجود التاريخي للدولة في حياة المسلمين واستقرارها كإحدى الحقائق الكبرى لهذا الدين، لا يعني بحال من الأحوال وجود صورة معينة واجبة الاتباع والاحتذاء، أو صيغة محددة لا يجوز الخروج عليها بحال أو الاجتهاد معها بأي معنى من المعاني. وتشهد التجربة التاريخية الإسلامية في هذا الصدد بقيام صور متعددة للدولة في حياة المسلمين؛ فقد انتقلت القيادة في الأمم الإسلامية بين الشعوب المختلفة وتعددت عواصم الخلافة. فإذا نظرنا إلى التاريخ الإسلامي نجد أن قيادة الأمة الإسلامية قد تداولتها جميع الشعوب المنضوية في إطار هذه الأمة من العرب إلى الفرس إلى البربر إلى الأقباش والأفارقة، إلى الهنود والأتراك والمغول وغيرهم. وبالتوازي مع ذلك فقد تم تغيير العواصم من المدينة إلى الكوفة إلى دمشق ثم بغداد والقاهرة وخوارزم والقيروان وقرطبة وفاس وتمبكتو وغيرها، فجميع هذه المدن كانت عواصم ومراكز لهذه الحضارة³³. وتأسست الدولة وقامت أركانها وأخذت مظاهرها من تجربتها الحضارية الخاصة وشروط زمانها ومكانها والخصائص النفسية لشعوبها. ولهذا رأينا نموذج الخلافة الإسلامية المركزية ورأينا نماذج الدويلات المستقلة هنا وهناك، ورأينا حكومات ملكية وأخرى خضعت لمتغلب أجري أمره على الناس، ورأينا حكومات تقوم على الشورى ورضاء الناس. غير أن هذا التنوع في الأشكال والتباين في الصور والهيئات لا يغير حقيقة أن الدولة الإسلامية تقوم على مبادئ ثابتة وأصول راسخة وقواعد مكيئة وغايات قاصدة، تتبدل الوسائل والآليات دون أن تتغير المبادئ والغايات، إذ تنشأ الآليات والوسائل وتتحقق في المجتمع بحسب الحاجة إلى مثل هذه المؤسسات، بل إن هذه الحاجة كثيراً ما تدفع إلى ظهور مؤسسات جديدة يمكن أن تسهم بشكل أكثر فعالية في تنظيم المجتمع. ومن هذا الباب.. يمكن القبول بأي شكل للدولة أو وسيلة توصل لهذه الغاية، أو إليه تحقق وظائف الدولة، مادامت مستوفية شرطين:

1. إذا كانت تعين على تحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق وتصبح بذلك وسائل وآليات وأشكالاً معتبرة شرعاً ولها حكم المقاصد والغايات².
2. أن تحظى بالقبول من أغلب الناس وهو صك الشرعية السياسية والاجتماعية لهذه الأشكال والوسائل على المستوى التاريخي الواقعي. ولا مانع لحظتئذ من

³³ نصر محمد عارف، جدلية الذات والآخر في الحضارة الإسلامية، ورقة مقدمة إلى الندوة الدولية حول تفعيل

مقومات الهوية الثقافية الإسلامية في الفهم والتفاهم بين الشعوب والحضارات، والتي عقدت بالمقر الدائم للإيسيسكو، الرباط - المملكة المغربية، في الفترة من 8 - 10 صفر 1428 هـ الموافق 26 - 28 فبراير 2007 م.

الاستفادة واستلهاهم نماذج من التاريخ الإنساني والتجربة الحضارية لبني
البشر 34.

المحور الثالث: معايير الحكم الراشد عند الماوردي وابن تيمية :

تميز الحكم في العصر الراشدي بخضوعه لجملة من المبادئ المعيارية المنبثقة عن
التصور القرآني والنموذج النبوي الذي رسخه في أصحابه وعبر سنته، ويمكن إدراك
تلك الملامح التي يرشد بها حال الأمة من خلال محاولات عدة درست الشأن السياسي
أو الحكم السلطاني، ومن أبرز تلك المحاولات: الماوردي، ثم ابن تيمية.

1. الرشد من خلال نص الماوردي:

تحدث الإمام الماوردي عن أن ست خصائص يمكن اعتبارها كلامًا في الرشد
السياسي، فقال: "ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة، وأمورها ملتئمة، ستة
أشياء هي قواعدها، وإن تفرعت، وهي: دين متبع وسلطان حازم وعدل شامل وأمن
عام وخصب دائم وأمل فسيح" (أدب الدنيا والدين، ص133)، ثم أفاض في شرح هذه
الخصال الست، صحيح أنه تأثر بالموروث الثقافي الفارسي في كتاباته للآداب
والنصائح السلطانية، ولكن يمكن الوقوف على مصادر هذه الخصائص الستة كذلك في
التجربة الإسلامية الأولى كما في نصوص الوحي.

2. الرشد من خلال نص ابن تيمية:

خصص ابن تيمية كتابًا مفردًا للسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية،
بناه على آيتين من القرآن هما لباب السياسة العادلة الراشدة وهما: (إِنَّ اللَّهَ
يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ
اللَّهَ نِعَمًا عِظِيمًا بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ
وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) [النساء:
58 - 59] 35.

ثم قال ابن تيمية: "قال العلماء: نَزَلَتْ الْآيَةُ الْأُولَى فِي وُلاةِ الْأُمُورِ؛ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤَدُّوا
الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا، وَإِذَا حَكَمُوا بَيْنَ النَّاسِ أَنْ يَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، وَنَزَلَتْ الثَّانِيَّةُ فِي الرَّعِيَّةِ
مِنَ الْجُيُوشِ وَغَيْرِهِمْ، عَلَيْهِمْ أَنْ يُطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ الْفَاعِلِينَ لِذَلِكَ فِي قَسْمِهِمْ وَحُكْمِهِمْ
وَمَغَازِيهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ إِلَّا أَنْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِذَا أَمَرُوا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلَا طَاعَةَ
لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ فَإِنْ تَنَازَعُوا فِي شَيْءٍ رَدُّوهُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ وُلاةُ الْأَمْرِ ذَلِكَ، أَطِيعُوا فِيمَا يَأْمُرُونَ بِهِ مِنْ طَاعَةِ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأُذِيتَ حَقُوقُهُمْ إِلَيْهِمْ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ

34 تأملات في مدنية الدولة وبعض قضاياها د. عصام البشير
35 سورة النساء

ورسوله، قال تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة: 2] 36. وَإِذَا كَانَتْ الْأَيَةُ قَدْ أُوجِبَتْ آدَاءَ الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا، وَالْحُكْمَ بِالْعَدْلِ:

فَهَذَا جِمَاعُ السِّيَاسَةِ الْعَادِلَةِ، وَالْوَلَايَةِ الصَّالِحَةِ".

وقد لخص ابن تيمية أركان الحكم الرشيد في "رد الأمانات إلى أهلها" والمتمثل في نوعين: الولايات والأموال، وفي الحكم بالعدل والمتمثل في نوعين: الحدود والحقوق.

3. معايير الرشد في الدراسات المعاصرة:

وقد استخلص بعض الباحثين المعاصرين معايير الرشد من خلال سيرة الخلفاء الراشدين فخلص إلى أنها تسعة تنقسم إلى: قيم عليا هي (الاختيار، العدل، المساواة، المصلحة العامة، الحقوق والذمم) وقيم وسيطة هي (المحاسبة أو الحسبة، الأمانة، الكفاية، التكافل) 37.

المحور الرابع : المعايير اللازمة لتحقيق الحكم الرشيد

إن منهج النظر العلمي في استخلاص رشد الراشدين يتمثل في تأمل خلافة النبي صلى الله عليه وسلم وسياسته أولاً لأن الخلافة الراشدة هي خلافة له ونيابة عنه، ولذلك سميت خلافة أصلاً. ثم تأمل سيرة الخلفاء الأربعة وأهم خصائصهم ومآثرهم، ثم سيرة عمر بن عبد العزيز وأهم خصائصه لنعرف سر ضمه إلى الأربعة وجعله خامساً في وعي الجماعة المسلمة عبر التاريخ ، وقد أجمع أهل السنة على أن الخلفاء الأربعة الراشدين هم أبو بكر وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم أجمعين، وهم الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي" 38 وقوله صلى الله عليه وسلم: "الخلافة بعدي ثلاثون سنة" 39 وقوله صلى الله عليه وسلم: "ستكون خلافة نبوة ورحمة ثم يكون ملك ورحمة، ثم يكون ملك وجبرية ... " 40.

وأطلق كثير من العلماء على عمر بن عبد العزيز "ال خليفة الرشيد" أو "خامس الخلفاء الراشدين"، فروي ذلك عن الشافعي وابن كثير وروي عن سفيان الثوري أنه قال: الأئمة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز، وما سوى ذلك فهم منتزون". وهذه التسمية بالخلفاء الراشدين، مثيرة للتأمل والتفكير، فهي تحيل إلى معنى سرت عليه الأمة عبر تاريخها، فكأنها قد استبطنت معنى محددًا للرشد لم

36 سورة المائدة

37 (لؤي صافي، الرشد السياسي وأسسها المعيارية، مطبوعات الشركة العربية للأبحاث والنشر الطبعة الأولى بيروت 2015م ، ص78-79).

38 سبق تخريجه ..

39 ابن حبان في صحيحه ج 15 / ص 393 حديث رقم: 6943 الطبراني في معجمه الكبير ج 1 / ص 89
حديث رقم: 136 ابن حنبل في مسنده ج 5 / ص 221 حديث رقم: 21973 الترمذي في سننه ج 4 / ص 503
حديث رقم: 2226

40 ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء(1/98، رقم 233)

تمنحه لسواهم على كثرة من توالى عليها من الخلفاء والسلاطين والولاة، وهو ما يدفع إلى تأمله وبحثه وتلمس معايير في حقبة الخلفاء الراشدين الأربعة من جهة، وفي الصفات التي توافرت في عمر بن عبد العزيز حتى عُد خامساً لهم. ومن المعايير التي نستقيها بالاستقراء من سير الراشدين في شأن الحكم والسياسة وإدارة شؤون الناس مايلي :

❖ أولاً : المرجعية الإسلامية:

التشريع هو مظهر السلطان، والسلطة التي تضعه هي صاحبة السلطان، وقضية التشريع في الدولة الإسلامية محسومة بالآية (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (يوسف: 40)⁴¹ وبهذا المعنى فإن القرآن الكريم والسنة المطهرة هما مصدر الدستور الأعلى في الدولة الإسلامية..

يقول الدكتور سيد صبري: «القوانين الدستورية هي القوانين الأساسية وهي العمل الرئيس لسيادة الأمة. والسلطة التي تضعها يطلق عليها السلطة المؤسسة. وهذه القوانين هي مصدر جميع السلطات، تشريعية، وتنفيذية، وقضائية. وهي سابقة على القوانين العادية وأعلى منها. وإن على السلطة التشريعية - وهي سلطة مؤسسة لسن القوانين العادية - احترامها بل إن هذه السلطة لا تستطيع أن تشرع إلا في الحدود التي رسمتها لها هذه القوانين الدستورية⁴². وبهذا تحقق الدولة مقاصد الشرع، وترعى مصالح الخلق : فهي ربانية الغاية والمصدر، إنسانية المنطلق، أخلاقية المضمون. وقضية التشريع ومصدريته أمر محسوم في سير الخلفاء الراشدين بل وفي صدر الأمة بعامة .

❖ ثانياً : الاختيار الحر والبيعة الرضائية (الأمة مصدر السلطات):

ويمكن رصد ذلك في مجريات انتقال الخلافة إلى أبي بكر وعمر وبقية الأربعة، وهو ما النقطة الفقهاء فيما بعد وتبلور لاحقاً في كتب الأحكام السلطانية التي تقرر أول ما تقرر مواصفات "الإمامة" وتوصيفها بأنها "عقد" لا بد فيه من طرفين والعقود لا تقوم إلا بالتراضي، وأنه يقوم على الاختيار الحر.

وإذا كانت أصول التشريع لله بمقتضى إسلام الشعب، ومن ثم الدولة؛ فإن البشر هم الذين ينفذون حكم الله في الأرض. ولما كان من المستحيل عقلاً أن يتولى الجميع سلطة التنفيذ على مرتبة واحدة في السلطة وقوتها فإن الأمة تنيب عنها من يتولاها، أي تعطي التنفيذ لغيرها ليباشره نيابة عنها حسب إرادتها واختيارها ، وبهذا المعنى فالأمة هي المصدر للسلطة. ولا يجوز بحال من الأحوال تغييب الأمة وقسرها على الاختفاء

41 سورة يوسف

42 نقلًا عن: علي السمانى، الذريعة إلى تحكيم الشريعة: تكليف فقهي للقوانين الإسلامية بالمحاكم السودانية،

والانسحاب في توكيل من ينوب عنها في ممارسة السلطة.والإسلام أوجب الشورى في مستويات السلطة المختلفة، وقرر البيعة طريقاً لشرعية الحاكم. وهنا لابد من الإشارة إلى احتياج مصطلح (الحاكمية) للضبط حتى لا يقع الخلط بين الإلهي والبشري، ويؤدي إلى وضع سيادة الأمة في موضع النقيض لحاكمية الله عند كثير من المنتسبين إلى العمل الإسلامي وهذا خلط شائه ، كما أن الحرية منحة إلهية فطرية وليست منحة تشريعية. وحرية الإنسان مقدسة - كحياته سواء بسواء - وهي الصفة الطبيعية الأولى بها يولد الإنسان «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة»، وهي مستصحية مستمرة.. ليس لأحد أن يعتدي عليها.

والحرية - كالعقل - شرط للتدين في حد ذاته. والتدين الصحيح يعززهما ويرتقي بهما، على نحو تكون فيه حرية الإنسان بحسب عبوديته وعلمه.

وفي سورة الأعراف الآية 157 يحدد القرآن مهام النبي عليه السلام في أنه: (أَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) ⁴³، فالدين جاء لكسر الأغلال التي تكبل النفوس والعقول والأجساد وترفض استعباد الإنسان لأخيه الإنسان تحت أي مبرر. ولذلك لم يأت الإسلام بالرق أو يأمر به، وإنما جاءت شرائعه محرضة على العتق والتجفيف التدريجي لمنابعه، ولذلك تواترت هذه العبارة على ألسنة العلماء «الشارع متشوّف للحرية».

وبين الحرية والمسؤولية رباط وثيق، فالحرية في الإسلام هي الخضوع الواعي لنواميس الكون والشرع. إنها ليست استباحة: افعلوا ما تمليه عليكم رغائبكم! فتلك حرية الحيوان! وإنما: افعلوا الواجب الذي أمركم الله به؛ تتحرروا من أهوائكم ومن تسلط بعضهم على بعض .

❖ ثالثاً : الشورى :

إذا كانت الخلافة هي نيابة عن صاحب الشرع أو كما عرفها الماوردي بالقول: (الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا)، وتبعه ابن خلدون فزاد "به"، أي بالدين، فمن المهم تأمل الممارسة السياسية النبوية والتي تمثلت في معيار مكين للرشد وهو مبدأ الشورى الذي تحدث عنه القرآن بوضوح، ووصفه بصيغة تدل على أنه كان شأنًا مستقرًا ومعتادًا (وأمرهم شورى بينهم)، وممارسات الشورى الفعلية متعددة في السيرة النبوية فقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعونه فيما لم ينزل فيه وحى، وهي المبدأ الذي استمر فيما بعد كما نجده بوضوح في خطبة أبي بكر التي ألح فيها على "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"، وحين توفي عمر جعل الإمامة شورى في أهل الشورى كذلك.

⁴³ سورة الأعراف157

إن الإسلام يرفض الفرعونية التي تحتفي بالفرد صاحب السلطة المطلقة، ويقرر قاعدة في مآل هذه الحالة التي وردت في قوله تعالى: (فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) [هود:97]44، وفي قوله تعالى: "وَتَلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ" (هود 59)45 .

ويرد القرآن الاعتبار للإنسان مقابل الحاكم/السلطة ويحتفي بالعقل البشري أيما احتفاء. وقد أمر الله تبارك وتعالى نبيه بقوله (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) [آل عمران: 159]، وهو من هو عصمة حالٍ وصراحة عقلٍ ونقاء روحٍ. واعتبر القرآن أن الشورى هي السمات اللاتق بالمؤمنين

(وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ) [الشورى: 38]46 ولئن كانت دولة المدينة محدودة الجغرافيا معروفة فيها أهل الكفاءة والاستحقاق؛ فإن الدولة المعاصرة تعقدت واتسعت وتطورت الآليات فيها واستحكمت بقدر كبير وأصبحت مؤسسة الشورى ضرورة لا بد منها، ولا حرج في انتخاب أعضاء مجلس الشورى) البرلمان (بدلاً من الصورة التاريخية التي كان الخليفة يختار أهل شوراها ممن يحب ويثق، من أهل عصبته أو أهل العلم. ويجب أن يشاور أهل الاختصاص كلاً في مجاله عبر اللجان المتخصصة وغيرها، ولا يشترط في أهل الاختصاص إلا الكفاءة العلمية والقوة الأخلاقية والإخلاص للوطن والولاء العام للأمة، مهما كانت أديانهم وألوانهم وأعرافهم وأنواعهم. قال ابن خويز منداد: «واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما أشكل عليهم من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها. وكان يقال: ما ندم من استشار، وكان يقال: من أعجب برأيه ضل»47.

❖ رابعاً : العدل :

وهو القيمة المركزية في الإسلام، وهي القيمة التي جعلت من حكم الخلفاء الخمسة حكماً راشداً، وهو المعيار الذي يفسر سبب ضم عمر بن عبد العزيز للأربعة، ففي أول خطبة له قال: "ألا إني لست بقاض وإنما أنا منفذ لله، ولست بمبتدع ولكني متبع، ولست بخيركم وإنما أنا رجل منكم. ألا إني أتقلكم حملاً"48 .

44 سورة هود 97

45 سورة هود 59

46 سورة الشورى

47 محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، ج4 ، ص236 :

48 (الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، لأبي عبد الله بن عبد الحكم (214هـ)، تحقيق أحمد عبيد، القاهرة: دار

الفضيلة، ص51)

وقال: "لا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصياً، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم، ألا وإنني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله ... إنه لحبيب إلي أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ولا قوة إلا بالله" 49
وكتب مرة فقال: "إن استطعت أن تكون في العدل والإصلاح والإحسان بمنزلة من كان قبلك في الظلم والفجور والعدوان فافعل" 50 .

إن من أعظم ما أمر الله به عباده وحثهم عليه إقامة العدل بين الناس، يقول تبارك وتعالى (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) [النحل: 90] 51 . في هذه الآية يأمر الله عز وجل بمكارم الأخلاق وينهى عن سفاسفها، و «العدل» هو الصراط المستقيم المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط.

ويكون العدل في القضاء والتحاكم وفي توزيع المال والخدمات والسلطة والثروة . وبغير العدل يكون التظالم،» والظلم منذر بخراب العمران «كما قال ابن خلدون .والدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وإن الله ينصر الدولة العادلة حتى وإن كانت كافرة ولا ينصر الظالمة وإن كانت مسلمة ، ومن لوازم العدل في الحكم المساواة أمام القانون ، ويمكن أن يستثنى في مجال القانون الأحوال الشخصية حيث للشخص أن يختار التحاكم لقانون خاص يقتضيه دينه ومعتقده؛ لأن الحرية الدينية من القيم العليا - إن جاز ترتيب القيم - التي يكون عليها، بموجب ممارستها عملياً، مدار التكليف.

❖ خامساً : التخلق بالقيم الفاضلة :

يقول علامة علم الاجتماع ابن خلدون (التنافس في الخلال الحميدة من علامات الملك) 52 ، وصاحب السلطة باعتباره متخذ القرار الأول لا بد أن يكون قادراً على الضبط وعدم الطيش ، وذلك هو معنى الرشد ، فإن كان الإنسان غير قادر على ضبط نفسه في سلوكه وأخلاقه فهو على ماسوى ذلك أعجز وأقل قدرة ، وقد جعل الإسلام من الوظيفة السياسية و الإمامة العامة منظومة أخلاقية تنطوي على معانٍ قيمة رفيعة، وليست مجرد مظهر للحكم أو صيغة للتداول يحاول البعض استعادتها استعادة مشوهة، وقد عكف كثيرون على الأطار المظهري والبعد البنيوي للممالك الإسلامية التاريخية محاولين إعادة انتاجها في واقع اليوم متناسين أن كثيراً من هذه الممالك قد سكت عنها العلماء بدافع رعاية المصالح وبفقه الضرورة الذي يلجئ لطريق ضيق لكنه حال المقارنة بغيره يعد أرحب وأكثر سعة .

49 (سيرة عمر، ص52)

50 (سيرة عمر، ص124).

51 سورة النحل

52 مقدمة ابن خلدون ج1 ص 189

إن الناظر في سير الراشدين وشمائلهم ليلمكه العجب ، ويشدهه سمو الاخلاقي والمثال القيمي الذي يعز نظيره ، وكم من مؤلفات تترى تحدث عن سيرة عمر رضي الله عنه وأخلاقه ، ويتملكننا العجب أكثر حين نعلم أن عمر قد أقر رغم كل ما حازه من سبق بسبق أبي بكر الصديق له ، وحق للفرزدق أن يقول :

أولئك آبائي فجتني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجمع

❖ سادساً : التمايز بين السلطات :

ويمكن أن نلمس هذا في شكل ممارسة السلطة في العصر الراشدي، ففي خلافة أبي بكر واجه أحداث الردة وغيرها بقرار جماعي ونقاش عميق في شأن ذلك مع معارضة شديدة آلت فيما بعد إلى اتفاق وتوافق. وفي خلافة عمر من خلال "الاجتهاد الجماعي" الذي كان يقوم به أهل الرأي والعلم، وهو ما يعكس تمايزا بين السلطة التنفيذية (الخلفاء وعمالهم) والسلطة التشريعية التي كان يشترك فيها جميع الصحابة من أهل العلم، والسلطة القضائية التي تولاها القضاة وهي الأدوار التي تمايزت فيما بعد في العهدين الأموي والعباسي.

إن تجمُّع السلطات في يد واحدة، مفسدة مطلقة، وقد حرر الإسلام السلطة التشريعية من قيد السلطة التنفيذية، لهذا لم يعرف تاريخ الإسلام حكما باسم الحق الإلهي يمارسه حاكم، وظلت السلطة القضائية مستقلة عن السلطة التنفيذية.

إن تحقيق الفصل المتوازن بين سلطات النظام السياسي الثلاث (التنفيذية والتشريعية والقضائية) وتفعيل الرقابة المتبادلة بينها واحترام كل منها للاختصاصات الوظيفية المنوطة بالسلطة الأخرى وفقا للقواعد الدستورية والقانونية المرعية والمعتمدة يساعد على بناء نظام سياسي عادل.

➤ الأسس التي يقوم عليها مبدأ الفصل بين السلطات

إن الفصل المقصود بين السلطات هو الفصل المتوازن في توزيع الصلاحيات والمسؤوليات مع قيام قدر من التعاون فيما بينها لتنفيذ وظائفها في توافق وانسجام ويحد من هيمنة أي منها على الشأن العام.

ومن الأسس المنظمة لهذا الفصل اللازم..

أ. ضرورة وجود ثلاث سلطات أساسية في النظام السياسي وهي السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية.

ب. تتمتع كل سلطة منها بصلاحيات واختصاصات أصيلة ومحددة في القانون الأساسي (الدستور).

ج. تتمتع كل سلطة منها باستقلال نسبي عن الأخريات في عملها وفي آليات اتخاذ القرارات وبما يسند لها من صلاحيات.

د. لا يجوز استئثار أي سلطة من السلطات الثلاث سابقة الذكر بصلاحيات مطلقة في تنفيذها للمهام الموكولة لها، بمعنى الحيلولة دون الاحتكار المطلق للسلطة (power) في أي مجال من المجالات لقطع الطريق على الاستبداد باستعمالها.

هـ. لا بد من وجود رقابة متبادلة وفعالة بين السلطات الثلاث بحيث تمارس كل منها صلاحياتها تحت رقابة السلطات الأخرى أو رقابة أي جهة دستورية مفوضة عن الشعب لضمان التزام كل سلطة بحدودها.

سابعاً : الرقابة والمساءلة :

ترتبط قضية الحوكمة بمفاهيمها المعاصرة بمعاني الحسبة وتطبيقاتها في التراث الإسلامي، والحوكمة من المفاهيم المستحدثة في زماننا المعاصر والتي ترمي الى الانتقال من التركيز على أجهزة الحكم إلى اعتبار البنيتين الاجتماعية والسياسية ، فمن تعريفات الحوكمة أنها (الممارسات الرامية إلى توظيف السلطة السياسية والقدرات المجتمعية لتطوير السياسات العامة للدولة لمواجهة التحديات وحل المشكلات وتحقيق المصلحة العامة)⁵³.

إن الحوكمة الرشيدة التي نسعي لتحقيقها تستمد مفاهيمها من التوجيه القرآني والهدي الرسالي والفعل النبوي خلال السنوات التأسيسية لمجتمع المدينة وامتداد هذه المرحلة الرسالية في المرحلة التي تبعتها والتي اصطلح على تسميتها بمرحلة الراشدين ، والتي استمدت صفتها من القيم العليا التي سعى الرعيل الاول لتمثلها في حياتهم السياسية . وللحوكمة الراشدة في أدبيات الادارة العامة المعاصرة محددات معيارية متعددة لعل أهمها المحددات الثمانية الآتية : المشاركة والتوافق والمساءلة والشفافية والاستجابة والفاعلية والانصاف وسيادة القانون)⁵⁴

❖ ثامناً: استكفاء الأمانة وتقليد الصلحاء :

إن من أوجب واجبات الإمام (استكفاء الأمانة وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال ، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمانة محفوظة)⁵⁵.

ويقول ابن تيمية: «فيجب على كل من ولي شيئاً من أمر المسلمين ، أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع أصلح من يقدر عليه، ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية، أو سبق في الطلب، بل يكون ذلك سبباً للمنع .

فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لأجل قرابة بينهما أو الرشوة يأخذها من مال أو منفعة فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ، إن اختيار الأمانة فيه ضمان لصلاح الحال وحسن الأمر في المال ، فإن المؤدي للأمانة مع مخالفته هواه يثبتته الله فيحفظه في أهله

⁵³ الرشد السياسي وأسس المعيارية . لؤي صافي ص 24

⁵⁴ المرجع السابق ص 25

⁵⁵ الاحكام السلطانية للماوردي ص 18

وماله بعده ، والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده فيذل أهله، أو يذهب ماله، وفي ذلك الحكاية المشهورة: أن بعض خلفاء بني العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه عما أدرك، فقال أدركت عمر بن عبد العزيز، قيل له: يا أمير المؤمنين أفقرت أفواه بنيك من هذا المال، وتركتهم فقراء لا شيء لهم - وكان في مرض موته - فقال أدخلوهم عليّ، فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكراً ليس فيهم بالغ، فلما رأهم ذرفت عيناه، ثم قال لهم: لا بني والله ما منعكم حقا هو لكم، ولم أكن بالذي أخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين إما صالح فإله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله، قوموا عني، فقال: فلقد رأيت بعض بنيه حمل على مائة فرس في سبيل الله، يعني أعطاه لمن يغزو عليها. هذا وقد كان خليفة المسلمين، من أقصى المشرق - بلاد الترك - إلى أقصى المغرب - بلاد الأندلس -، ومن جزائر قبرص وثور الشام إلى أقصى اليمن، وإنما أخذ كل واحد من أولاده من تركته شيئاً يسيراً يقال: أقل من عشرين درهماً.

قال: وحضرت بعض الخلفاء وقد اقتسم تركته بنوه، فأخذ كل واحد منهم ستمائة ألف دينار، ولقد رأيت بعضهم يتكفف الناس. 56

❖ تاسعاً : البطانة الصالحة حول الحاكم وقيامها بدورها :

البطانة هم الدخلاء، الذين يدخلون على الملوك والأمراء في مكان خلواتهم ومحلات انفرادهم، ويُفضون إليهم بأسرارهم، وهم موضع ثقة الإمام ، حيث يصدِّقهم فيما يخبرونه به مما خفي عنه من أمر رعيته، ومن ثم يقوم بالعمل على هدي مما ألقوه له إن خيراً وإن شراً .

والبطانة أمر لازم لا يكاد ينفك عنه ملك أو أمير منذ خلق الله الخلق وحتى يُفنيهم، ولا تكاد تجد لهذا الأمر استثناء. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى"، رواه البخاري. وقال في حديث آخر: "ما من والٍ إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، فمن وقى شرها فقد وقى، وهي من التي تغلب عليه منهما"، رواه النسائي .

56 انظر: «مجموع الفتاوى» (247/28 - 250) باختصار.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من ولي منكم عملاً؛ فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً؛ إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه"، رواه الإمام النسائي في سننه.

وقد كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرب إليه الأسمى من بين صحابته فتخير لهجرتة أبا بكر وكان يثنيه عن الخروج للمبارزة يقول متعنا بنفسك يا أبا بكر وعندما سمع صوت عمر يصلي بالناس قال ياأبي الله ذلك والمسلمون , ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول ذلك رغم المكانة السامية التي لعمر رضي الله عنه لكن نبينا صلى الله عليه وسلم يعلمنا ههنا ترتيب الأولويات في الاستخلاف .

ومن سيرة عمر رضي الله عنه أنه قيل له (إن ههنا غلاما من أهل الحيرة حافظا كاتباً فلو اتخذته كاتباً ؟ قال : اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين) قال ابن كثير في هذا الأثر دليل على أنه لايجوز استعمال أهل الذمة في الكتابة التي فيها استتالة على المسلمين واطلاع على دخائل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب 57

ولا ريب أنه كانت للبطانة الفاسدة دورها المحوري العظيم في انهيار الأمم، وإن مما يستلقت الانتباه في قصة فرعون موسى، أن أحد الأسباب الرئيسية التي أودت بحكمه وملكه، وانهيار قوته وهلاكه، تكمن في تقريبه لأهل الظلم والفساد والبغي، وعلى رأسهم هامان؛ فلقد ذكره القرآن الكريم في ستة مواضع: ثلاثة في سورة القصص، وواحد في سورة العنكبوت، واثنان في سورة غافر، كلها تصفه بالمجرم العاتي، متزعم البطانة الفاسدة التي وقفت أمام الحق، واستهزأت بالبرهان الواضح، والدليل البين الذي جاء به موسى ﷺ إلى فرعون وملئه . ولنا في تاريخنا الإسلامي عشرات الأمثلة التي تؤكد لنا خطر البطانة الفاسدة على هذه الأمة .

❖ عاشراً : استقلال المجتمع بأدواره :

تمددت الحكومات في زماننا المعاصر وابتلعت كثيراً من أدوار المجتمع ومؤسساته، في إطار التعليم والثقافة والإعلام وغير ذلك من أوجه العطاء المجتمعي ، ويعد ذلك أمراً مغايراً لما كان في سالف عصور الإسلام ، فقد شهد التاريخ الإسلامي ارتفاعاً في التعليم في البلاد المسلمة بمجهودات مجتمعية خالصة ، ويعد استقلال المجتمع بأدواره وقيامه بوظائفه عاصماً من كثير من القواصم ، فرغم قوة الدفع التي تحدثها مؤسسات السلطة وأجهزة الحكم ، إلا أن ارتباط أوجه الحراك المجتمعي بالمنظومات الحاكمة سيجعلها عرضة لتقلبات السياسة وتحديات الحكم، فلا بد للمجتمع من القيام بأدواره وتحمله لتبعاته .

57 تفسير ابن كثير ج 1 ص 313

❖ حادي عشر : مبدأ التداول:

عرفت التجربة التاريخية الإسلامية في عصرها الذهبي الراشد، استمرار بقاء الخليفة في السلطة لحين وفاته، وسرعان ما غاب رشد العهد الذهبي وسرعان ما سل السيف في طلب الخلافة والسلطة وأصبح السيف هو الحكم وقتل الخلفاء والتأمر عليهم وهو أقصر الطرق للسلطة وهو الفساد الباكر الذي أصاب الحياة الإسلامية.

ويعين على ترجيح تحديد مدة لرئاسة الحاكم والدوائر السلطانية الأخرى ما عدّه علماء الإسلام من موجبات عزل الحاكم مثل ترك الشورى، قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: " وأمرهم شورى بينهم " [الشورى: 38]، ونجد علماءنا الأجلاء قد ربطوا بين مقاصد سريان سلطة الحاكم وبين مقاصد المنصب، المنتسبة لوظائف الدولة في التصور الإسلامي، ولهذا أوجبوا عزله بسبب بعض الظروف الطارئة على الحاكم، والتجربة التراثية في العهد الراشد أفادت أن الإمامة عقد لا بد فيه من طرفين، وللأمة أن تضع من الشروط ما يضمن مصالحها ويحقق طمأنينتها ببقاء الحاكم مدى الحياة أفاد المشروعية ولم يفد الإلزام وقد استعمل الخلفاء مبدأ التداول في تعاقب الولاة والأمراء ومن المشهور قول عمر بن الخطاب لأحد من ولأهم بعد مضي أربع سنوات (إن كنت قد عدلت فقد ملك الناس وإن كنت قد جرت فحسب الناس من جورك أربع سنين).

ومما انتهى إليه عصرنا أن السلطة الدائمة تولد فسادا مطلقا في المجتمع وتفسخا في الدولة ولهذا نرجح تحقيقا لمقاصد الشريعة ورغبة في تحقيق مقاصد الدولة أن تحدد مدة فترة الحاكم وعدد الدورات التي يجوز له الترشح لهذا المنصب ويشهد لصالح هذا الاختيار التجربة الإنسانية الحاضرة.

❖ الثاني عشر: رعاية الأسبقيات واعتبار الموازنات

تعقد الحياة يتطلب موازنة بين جوانبها من حيث ترتيب الأولويات ، وتقديم الضروريات على الحاجيات، والحاجيات على التحسينيات، فإن كان هذا على نطاق الأشخاص، فمن باب أولى على مستوى الأمة والدولة، فالموازنة بين الضغوط الخارجية ومتطلبات الداخلية، وبين حاجة المجتمع الأنية وتطلعاته المستقبلية، وغير ذلك تحتاج إلى ضبط وتحديد الأسبقيات.

وقد اتسمت سياسة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه رضوان الله عليهم بمراعاة هذه الجوانب، والنظر في سائر الإتجاهات، ولهذا ترك قتل المنافقين نظرا إلى الرأي العام، وقدم على تحقيق السلم وفتح الباب أمام الدعوة على العمرة فعقد صلح الحديبية، وعلى هذا سار خلفاؤه من بعده.

❖ الثالث عشر: التخطيط الإستراتيجي

الحكم الراشد لا يتأتى من غير تخطيط، فسرعة الحياة تحتاج إلى برامج تواكب إيقاعها، وخطط تستثمر الإمكانيات وتسد الثغرات، فالدول التي ليس لها برنامج في كل الجوانب الحيوية دول لا تزداد كل يوم إلا تخلفاً.

إن مراكز البحث الإستراتيجي غدت اليوم بوصلات تهتدي بها الحكومات، لما فيها من قراءة للمستقبل وفق أسس علمية دقيقة، والعقل من عرف من اليوم الغد، وتهيأ له قبل بزوغ فجره.

والتراث الإسلامي زاخر بهذا الأساس الحكيم في إدارة الدولة، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع الأحزاب خائبين لم ينالوا خيراً قال: "الآن نَعْرُوهُمْ وَلَا يَعْزُونَنَا نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ" 58 ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم كلامه وحي يوحى، إلا أن هذه المقولة لا تخلوا من نفس تخطيطي واضح، وإشعار منه صلى الله عليه وسلم أنه سيتخذ من التدابير ما يجعل زمام المبادرة في يده تمهيداً لتحرير الأرض من الأعداء.

❖ الرابع عشر: البناء المؤسسي

إن الحكم الراشد هو المرتكز على مؤسسات، لها لوائح وآليات، وتكمن مهمة الأشخاص في تنفيذ المهام المعلومة سلفاً، والمخطط لها من جهاز التخطيط الإستراتيجي في الدولة، فلا مجال للمزاج الشخصي، ولا للهوى النفسي، واللوائح والقوانين الضابطة لمسيرة المؤسسة تسري على الجميع رؤساء ومرووسين.

وقد ركز النبي صلى الله عليه وسلم على مفهوم الجماعة، وهو إشارة إلى دوائر صنع القرار في الأمة، وعلى عدم مخالفة الإجماع، فقال عليه الصلاة والسلام: "مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شَبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً" 59

• خاتمة :

إن الفقه الإسلامي قد توسع جداً في جانب فقه المعاملات والشعائر، ولم يشهد تطوراً مماثلاً في جانب فقه السياسة الشرعية.. مما يلقي بالتبعة على عقول المتفكرين الإسلاميين والعلماء المعاصرين والعاملين من أجل استئناف الحياة الإسلامية. إن اليات ووسائل الحكم في الدولة القائمة في زماننا المعاصر تمثل نوعاً جديداً من أنواع السيادة لم يعرض لكثير من قضاياها الفقهاء السابقون؛ لأنها لم تكن ماثلة في

58 أخرجه البخاري، 162/10، (4110)
59 متفق عليه

زمانهم، الأمر الذي يتطلب اجتهاداً يناسبها في تطبيق الأصول الإسلامية وإجراء الأحكام الشرعية عليها.

والفكر السياسي هو ابن عصره من جهة، وابن مصادره العقديّة والحضارية من جهة أخرى . والمسلمون اليوم مطالبون بإنتاج فكر سياسي يشبه عصرنا، يستلهم خلاصة التجربة الإنسانية السياسية، ويعتبر بالاجتهاد الإنساني في هذا الخصوص، ويجتهد لعصره من أجل حكم راشد يقوم على المنطلقات الآتية:

المرجعية الإسلامية و الاختيار الحر والبيعة الرضائية و الشورى و العدل و التخلق بالقيم الفاضلة و التمايز بين السلطات و الرقابة والمساءلة و استكفاء الأمناء و تقليد الصلحاء و البطانة الصالحة حول الحاكم و قيامها بدورها أما الوسائل و الاليات فتختار الدولة من الأشكال و المؤسسات ما يتناسب مع روح العصر و إمكانات الواقع دون الانحباس في صيغة تاريخية سالفة أو نموذج معاصر له نفوذ على المستوى العالمي.

والله الموفق والمستعان .